لم تُقطع سُرَّتك

لما أراد الرب أن يُعرّف أورشليم برجاساتها على فم حزقيال نبيه قال لها: "أما ميلادك يوم ولِدت فلم تُقطع سُرَّتك" (حز١٦:٤). ومن المعروف أن الحبل السري هو الحبل الذي يربط الجنين بأمه في الرحم ليحمل له الغذاء والأكسجين اللازمين لحياته ونموه، أما بمجرد ولادته فلابد أن يقطع ذلك الحبل حيث يبدأ الجنين في الاعتماد على أجهزة جسمه للحياة.

وفي المفهوم الروحي يعني بقاء الحبل السُري بلا انقطاع بقاء رباطات الإنسان العتيق مما يؤدي بلا شك إلى إعاقة نمو الإنسان الجديد. وعبارة "لم تُقطع سُرَّتك" تنطبق على الكثيرين في الكتاب المقدس. لقد كان قلب امرأة لوط متعلقاً بسدوم حتى تسبب عدم قطع رباطاتها بها في تحولها إلى عمود ملح وهلاكها. وعلى الرغم من أن الرب أخرج شعب بني إسرائيل من أرض مصر بيد قوية وذراع رفيعة إلا أن حبله السري لم يُقطع عن ملذات أرض العبودية المتمثلة في قدور اللحم والسمك والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم فكانت النهاية المرة بأن ضرب الرب الذين اشتهوا فماتوا في القفر. أيضاً عخان بن كرمي، وجيحزي تلميذ أليشع النبي، والشاب الغني، والغني الغبي، ويهوذا الإسخريوطي، وحنانيا وسفيرة هلكوا جميعهم بسبب عدم قطع حبلهم السري المتعلق بالمال والغنى. أما شمشون، وسليمان فقد امتد حبلهم السري للارتباط بنساء غريبات فكانت النتيجة أن أُعميت عينا الأول وأذله أعداؤه، بينما تمزقت مملكة الثاني عنه وأعطيت لعبده. وغيرهم الكثيرون مثل الكتبة والفريسيين وديماس وإسكندر الحداد الذين أحبوا مجد العالم الحاضر وتعلقوا بربطه.

من أجل ذلك يكون أحد أهم مفاعيل النعمة في حياة أبناء الله هو تحقيق الوعد الإلهي: "أكسر نيره عن عنقك وأقطع ربطك" (أر٣٠:٨)، هذا الوعد الذي نُذكره به في كل مرة نرتل إبصالية الأحد متضرعين إليه: "حِل عني رباطات الخطية". إلا أن عملية قطع الحبل السري المرتبط بالعالم وشهواته لا تضمن وحدها حياة الإنسان الجديد. فالغصن المقطوع من الزيتونة البرية لن يحيا ما لم يُطعم في زيتونة المسيح الدسمة ويثبت فيها بالإيمان. أي أن الجهاد السلبي للتخلص من الخطايا لابد وأن يعقبه جهاد إيجابي في اكتساب الفضائل والنمو فيها مثلما تبدأ رئتا الجنين ومعدته في العمل بمجرد قطع حبله السري. ولعل هذا ما عبر عنه بولس الرسول في قوله: "لما كنت طفلاً كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر. ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل" (١كو١٣:١١). وأيضاً مار اسحق في قوله: "النفس المحبة لله سعاداتها فيه وحده. حِل قلبك من الرباطات البرانية أولاً حينئذ تقدر أن تربطه بحب الله وحده".

فيا روح الله القدوس ها نحن نخضع رقابنا لسكين نعمتك الحانية لتقطع عنا سُرَّتنا من الخارج وغرلة قلوبنا من الداخل فتصير علامة القطع تلك بمثابة ختم أبناء الله المولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى.